اضواء على حقيقة التوحيد في فكر الامام بديع الزمان سعيد النورسي

الدكتور سامي عفيفي حجازى*

بسم الله الرحمن الرحيم

استفتاح

‘‘والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم’’ قرآن كريم

‘‘قل هو الله احد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفواً احد’’ قرآن كريم

‘‘الحياة طراز من تجلى الوحدة’’ ٣ من حكم الحكيم بديع الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

اضواء على حقيقة التوحيد في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

ان القرآن الكريم بجانب دعوته الى التوحيد قد عرض مقولات الاديان وآراء الملل والنحل والمذاهب التي كانت منتشرة وقت التنزيل، فناقشها ، وبرهن على بطلانها وفسادها ، وقارن بينها وبين الدين الصحيح الذي هو الحق، والذي ارسلت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وعلى هذا فالمتأمل في قضايا الفكر الانساني يقف على ان قضية الالوهية قد شغلت الفكر البشري منذ وجوده من حيث العقيدة والسلوك ، ولم تنقطع السفارة بين السماء والارض لتقرير هذه القضية واحقاقها بواسطة رسل الله تعالى من الملائكة والناس. قال تعالى: الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ١ وكان ختم هذه الرسالات برسالة الفرقان الذي اضاء الوجود العقلي والكوني بقدوم نبي الاسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا كانت رسالات الانبياء قاطبة لا يقاظ العقول والقلوب الى عقيدة التوحيد وترسيخها في النفس باعتبارها فطرة الله التي فطر الناس عليها قال تعالى : فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون.٢

لقد كانت الدعوة الى وحدانية الله تعالى هي اول الوصايا في رسالات السماء المبنية على الوحي الالهي كما انها الاساس الاول في الدعوة الى دين الاسلام مع تنزيهه تعالى عن الانداد والاضداد.

وهذا هو المنهج الرباني الذي تلقاه المسلمون بالاذعان والتسليم عن رسولهم الامين وحياً معصوما من قبل رب العالمين وبعد ختم النبوات بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قام علماء الاسلام بمهام التصحيح لكل ما يخالف بناء الدين في ذات المسلم في دائرتي:

التكاليف الايمانية.

والتكاليف العملية.

وذلك لان بناء الدين في ذات المسلم يتمثل في:

- دائرة العقيدة.
- دائرة الشريعة.

- دائرة الاخلاق.

فالعقيدة اصل يدفع الى الشريعة ، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة والاخلاق ثمرة لهما، وعلى هذا كانت الكلمة الجامعة لرسول الانسانية ‘‘انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق’’ ٣

وعلماء الاسلام الذين تناولوا قضايا الفكر منذ فجر التاريخ قد كتبوا في هذا كما تابعهم خلفهم في استمرار الكتابة ، ولقد كان صاحب مجموعة كليات رسائل النور من العلماء العاملين لتجلية حقائق التوحيد امام تيارات متعددة كالدهرية وانصارها واهل الطبائع ، والصائبة والبراهمة، والثنوية، التي هبت رياحها من بلاد فارس حيث كان المسلمون يعيشون فيها، وعقيدة التثليث التي كانت تساكن المسلمين، واليهود ، وغيرهم من المخالفين...

لقد كان الامام بديع الزمان سعيد النورسي بثاقب فكره، وقوة حجته قد غطى معظم قضايا هذا الدين ، وتناولها بالبحث والدراسة والتحليل القائم على الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية في مؤلفات مجموعة كليات رسائل النور التي تشتمل على غرر الفوائد التي هي للدين قواعد.

ولهذا يخاطب بديع الزمان الانسان قائلاً له : ‘‘ان كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحقة، فاظفر بمعرفة الله. اذ حقائق الموجودات كلها انما هي شعاعات اسم الله الحق ومظاهر اسمائه الحسنى وتجليات صفاته الجليلة’’. ٤

وعلى هذا يتضح ان الامام بديع الزمان سعيد النورسي كان من العلماء الذين لهم منهجهم المتفرد والذي ظل بمعزل عن التعقيدات التي نادى بها السوفسطائيون. ليس هذا فحسب بل يقتضينا المقام ان ننبه هنا الى امر هام كثيراً ما كان الامام النورسي ينبه اليه ويلفت نظر القارئ له في اكثر من موضع من كليات رسائل النور، وذلك الامر الهام باختصار شديد هو – الانسان – الذي من اجله كان القرآن.

فالقرآن حديث للانسان او عن الانسان ، ولذا قيل ‘‘اذا كان الانسان هو لب الدنيا الذي تتوجه اليه رسائل النور بمعارفها الشاملة فلانه كل شئ ومآله الاخروى هو اعظم الاشياء واكثرها اهمية وخطورة’’.٥

وهذا الامر الهام يعتبر خاصية منهجية وهدفا من اهداف كل رسالة سماوية، ذلك ان قضية الالوهية ككل قضية من قضايا الدين المنزل لا يقصد منها تقريرها من الناحية النظرية كي يقنع بها من يسير تحت لوائها او يفحم من يعارضها او يحاول التشويش عليها فحسب وانما يقصد من ورائها بالدرجة الاولى ان تتحول الدعوة الى كيان حي تعبر عن شخصية أمة الاجابة التي استجابت لرسولها وتابعته على ما جاء به قولاً وعملاً حتى تشاهد مبادئه وقواعده النظرية في صورة كائنات محسوسة متحركة، ولذا يعلن النورسي ان سبب ما يعانيه افراد المجتمع المسلم من اخطار يكمن في غياب الوعي الايماني وليست هذه دعوى بدون دليل فقارئ كليات رسائل النور للنورسي وتحليلاته لا يحتاج الى عناء ليلحظ الربط المحكم والشد الوثيق بين قلب الكون وقلب الانسان.

ولهذا يخاطب بديع الزمان الانسان قائلاً له كما تبين فيما تقدم ‘‘ ان كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة فاظفر بمعرفة الله’’ ٦ كما يشير الى تفرد الاستدلال القرآني فيقول: ‘‘ان ادلة القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى اولى واحكم من اي طريق اخر وذلك لاعتماده في استنباط وحدانيته تعالى على اصل الفطرة وعلى المشاهدة الذاتية وهي احدى وسائل المعرفة البدهية،

فطريقة القرآن الكريم في هداية البشر الى وحدة الالوهية بعد تقرير ثبوتها باصل الفطرة ٧ قال تعالى : ان هذا القرآن يهدى للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً كبيراً ٨

ومن هنا يتيقن دوام العطاء لرسائل النور لدوام مصدرها القرآني ، وفي هذا المقام يقول الامام بديع الزمان '' ان رسائل النور برهان للقرآن الكريم وتفسير قيم له وهي لمعة براقة من لمعات اعجازه المعنوى، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس وحقيقة ملهمة من كنز العلم ، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته''. ٩ كما تناول في الكلمة الثانية والعشروين اثنى عشر برهاناً حول حقيقة التوحيد مشتملة على البراهين العقلية والكونية الكلية والجزئية ويعدها قطرة من بحر التوحيد ١٠ كما يتحدث قبل ذلك في الكلمة السادسة عشرة عن اربع اشعات عن النفس من فيض القرآن الكريم واضعاً يد القارئ على حقيقة التوحيد وكون الصلاة معراجاً ورحمة الخالق بالمخلوق.١١

كما يتناول في نفس مجلد الكلمات الحديث عن الوحدانية والاحدية ويدلل باشارات ورموز وحجج بعضها فوق بعض لدعم ترسيخ الايمان والربط بين نوافذه وازاهيره كما هو في الكلمة الثالثة والثلاثين ١٢. وكما يقول في اللمعات.

كما تحدث في مجلد المكتوبات عن حقيقة التوحيد وبيان اهمية الايمان بالله ومعرفته ومحبته حديثاً تقلبه الفطرة وتستقيم به النفس ١٣ وايضاً في مجلد مرشد اهل القرآن الى حقائق الايمان. ١٤...

وهكذا فان علم التوحيد كما قرر ابن خلدون يعني بالالهيات في مقابلة علم الفقه.'' ١٥ والنقاش في هذه العقائد الايمانية هو الذي كون علم التوحيد.

ونظراً لأن اعتقاد الوحدانية لله عز وجل هي شهادة القبول للدخول في دين الله تبارك وتعالى - الاسلام - كما انها عقيدة النجاة في الآخرة كان من الضروري بيان معنى التوحيد والوحدانية لله عز وجل والتعريف بها مؤيدة بدليل العقل ونص الشرع.

معنى التوحيد:

يقوم اى معنى من المعاني في فلك ودائرة اللفظ المطلق له على حسب ما بينهما من رابطة تجمعهما في الاصل والاشتقاق وعلى هذا فالتوحيد في عرف اهل اللغة مصدر ''وحد'' بتشديد الحاء تقول: وحدت الله اعتقدته واحداً ، منفرداً بذاته وصفاته وافعاله بلا نظير ولا شبيه والواحد من صفات الله تعالى معناه انه لاثاني له ذو الوحدانية والتوحيد وانه المنفرد بالايجاد والتدبير.

فالتوحيد الايمان بالله وحده والله الاوحد والمتوحد ذو الوحدانية والتوحيد. وانه المنفرد بالخلق والتدبير. ١٦

واما عند علماء الكلام: فهو اعتقاد ان الله تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي افعاله ، اي افراد العابد للمعبود بالعبادة، وتخصيصه بها، وقصر استحقاقها عليه ، فلا يشرك به غيره فيها.. مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفات وافعالاً، فليس هناك ذات تشبه ذاته تعالى ، ولا تقبل ذاته تعالى الانقسام بوجه ما، لا فعلاً ولا وهما، ولا فرضاً مطابقاً للواقع، ولا تشبه صفاته الصفات، ولا تعدد فيها من جنس واحد بأن تكون له تعالى قدرتان مثلا ولا يدخل افعاله الاشتراك . اي ليس لاحد تأثير في فعل ما لا بالاستقلال ولا بغيره، اذا الافعال كلها خيراً كانت او شراً منسوبة له تعالى خلقاً وايجاداً ولغيره كسباً وهذا الكسب هو اساس التكليف والثواب والعقاب ولذا قالوا: ان هذا التعريف ينفي كموماً خمسة ١٧ وتتمثل فيما يلي:

اولها: الكم المتصل في الذات على معنى انه ينتفي ان تكون ذاته تعالى مركبة من اجزاء.

ثانيها: الكم المنفصل في الذات ايضاً، على معنى انه ينتفي ان تكون هناك ذات اخرى تشبه ذاته تعالى فليس معه اله آخر وهذان الكمان منفيان باعتقاد وحدة ذاته تعالى.

وثالثها: الكم المتصل في صفاته تعالى . على معنى انه ينتفي ان تتعدد صفاته. فليس له تعالى صفتان او اكثر من جنس

واحد كقدرتين وارادتين وعلمين بمعنى ان تكون كل واحدة منهما صالحة للايجاد والاعدام.

ورابعها: الكم المنفصل في الصفات على معنى انه ينتفي ان يكون لغيره صفة تشبه صفته تعالى، كأن يكون لغيره قدرة يوجد بها ويعدم كقدرة الله تعالى ، او يكون لغيره ارادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، او علم محيط بجميع الاشياء.

وهذان الكمان منفيان بوحدة الصفات.

وخامسها: الكم المنفصل في الافعال على ومعنى انه ينتفي ان يكون لغير الله فعل على سبيل الخلق والايجاد من تلقاء نفسه دون ان يكون الله تعالى اقدره عليه.

وهذا الكم منفي بوحدة الافعال.١٨

ومن كل ما تقدم يتضح ان وحدة الذات الواجبة له تعالى معناها انه سبحانه وتعالى ليس جسماً مركباً يقبل الانقسام، وانه ليس هناك اله غيره. ووحدة الصفات الواجبة له معناها انه ليس له صفتان من جنس واحد، وليس لغيره صفة تشبه صفته ووحدة الافعال معناها انه ليس لاحد فعل كفعله.

وبعبارة اخرى: ان وحدة الذات تنفي عنه الكم المتصل والكم المنفصل في الذات ووحدة الصفات تنفي عنه الكم المتصل والكم المنفصل في الصفات. ووحدة الافعال تنفي عنه الكم المنفصل في الافعال.

واما في لسان الشرع: فالتوحيد هو الايمان اي الاعتقاد الجازم الذي لايرقى اليه ريب ولا يخالجه شك بوجود الله تعالى ووحدانيته ، وانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير. اي يجب له كل كمال يليق بذاته ويتنزه عن كل نقص.

وهذا المعنى مرتبط بالمعنى اللغوى الذي وقفنا عليه فيما تقدم.

وعلى هذا يتضح ان علم التوحيد يراد منه الدفاع عن عقيدة التوحيد المتلقاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة وهذا المعنى يتمثل في الدور الايجابي والدور الدفاعي:

اما الاول : فقائم على اثبات العقيدة بالنقل والعقل.

واما الثاني: فقائم على رد شبهات الحائرين والمخالفين.. ١٩

ومن هنا يمكننا القول ان مقاصد علم التوحيد تتمثل في:

١- توضيح العقائد الدينية وما تشتمل عليه.

٢- الدفاع عنها وتفنيد الشبهات التي يثيرها الخصوم للنجاة من الوان الشرك الشائع.

٣- ابطال العقائد المجافية لمنهج الفطرة والتوحيد.

ولذا فمركز التوحيد من الانسان يعدل مركز القلب من الجسد بالربط بين الشريعة الايمانية والشريعة الكونية.٢٠

والتوحيد بهذا المعنى له بناء يعلن عنه ويدل علله هو كلمة التوحيد ''لا اله الا الله محمد رسول الله''.

وفي هذا المقام يقول الامام بديع الزمان سعيد النورسي في اشارة مختصرة لاثبات التوحيد من حيث الاسم الاعظم.

الكلمة الاولى: ''لا اله الا الله''

تتضمن هذه الكلمة توحيد الالوهية وتوحيد المعبودية، نشير اليهما ببرهان قوى هو : انه يشاهد على وجه هذا العالم،

ولاسيما على صحيفة الارض فعالية منتظمة غاية الانتظام. ونشاهد خلاقية حكيمة في غاية الحكمة. ونشاهد بعين اليقين فتاحية في غاية النظام - اى اعطاء كل شئ ما يلائمه من شكل والباسه ما يلائمه من صورة..٢١

فهذه المفاتيح الايمانية معناها لا معبود بحق الا الله وهذا الاعتقاد هو اساس الاسلام وحجر الزاوية فيه فمتى استقر هذا المعنى في النفس ووقر في القلب دفع الى الايمان برسالة سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والشهادة له بالنبوة.

ومتى استقر هذا المعنى الثاني في النفس استتبع الايمان بملائكة الله تعالى وبكتبه ورسله واليوم الآخر وما يقع فيه مما دلت عليه النصوص الصحيحة وكذلك استتبع الايمان بالقدر كله خيره وشره من الله وبذلك تكون قد اكتملت دعائم الايمان.

ولهذا يخاطب الامام بديع الزمان الانسان قائلاً له: ''ان الايمان هو عهدنا بالميثاق الازلي قد درج في هذا الكلام المقدس وان الاسلام الذي هو الماء الباعث على الحياة، قد نبع من عين حياة هذه الكلمة.'' ٢٢ ثم يقول هذه الكلمة منهاج ازلي ينطق به اللسان، المبلغ الامين عن الايمان بالله الحكيم... وخطاب فصيح ينشده الوجدان الملئ بالاسرار تجاه الكائنات'' ويفسر هذا فيقول: ''ان كل ذرة من ذرات الكائنات، بينما هي مترددة في امكانات واحتمالات غير محددة، بذاتها وصفاتها وسائر وجودها اذ ا بها تسلك مسلكا معيناً ، وتتجه وجهة مخصصة، فتنتج مصالح وفوائد تتحير منها الالباب مما يجعلها تدل على وجوب وجوده سبحانه، وتشهد شهادة صادقة عليه...

ان وجدان الانسان لا ينسى الله قط لما غرز فيه من نقطتي الاستمداد والاستناد، بل حتى لو عطل الدماغ اعماله، فالوجدان لاينسى، لانه منهمك بتلك الوظيفتين المهمتين كالآتي:

ان قلب الانسان مثلما ينشر الحياة الى ارجاء الجسد، فالعقدة الحياتية في الوجدان - وهي معرفة الله - تنشر الحياة الى آمال الانسان كل بما يلائمه هذه نقطة الاستمداد.

ثم ان معرفة الله نقطة استناد وحيدة للانسان تجاه تقلبات الحياة ودواماتها، وتزاحم المصائب وتوالى النكبات.. اذ لو لم يعتقد الانسان بالخالق الحكيم الذي امره كله حكمة ونظام، واسند الامر والحوادث الى المصادفات العمياء، وركن اليها والى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئا، فسينتابه الفزع وينهار من هول ما يحيط به من بلايا...

وهذا ما لا يتفق وكمال روح الانسان المكرم، اذ يستلزم سقوطه الى هاوية الذل والمهانة، مما ينافي روح النظام المتقن القائم في الكون كله.

وهذه هي نقطة الاستناد... نعم لا ملجأ الا بمعرفة الله.

فمهما اطبق العقل جفنه، ومهما اغمض عينيه، فالفطرة تراه وعيون الوجدان مفتحة دائما، والقلب نافذة مفتوحة. ٢٣

والقارئ للفكر النورسي في حقائق التوحيد يقف على انه يتجدد بالانسانية لايقاظ منبهات الفطرة والتوحيد، وبهذا يصبح الانسان هو الكلمة الاولى والنهائية في ظل هذا البيان الايماني للامام بديع الزمان سعيد النورسي في الجانب الافقي والرأسي بين الارض والسماء والذي كان من اجله القرآن الذي هو حديث للانسان او عن الانسان وهذه القضية يدركها من ينظر في كتاب الله المقرؤء - القرآن الكريم - كما هي في كتاب الله المنظور - الكون وما فيه - ولذا فمن خلال الاستقراء لمراجع ومصادر كليات النور في شمولها لقضايا الفطرة والتوحيد. ندرك ان هذه الرسائل بالنسبة للعقل كالنور بالنسبة للعين كما تبين فيما سبق في وصف بديع الزمان لرسائل النور ''انها برهان للقرآن الكريم وليست كالمؤلفات الاخرى التي تستقي معلوماتها من مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا استاذ لها الا القرآن ولا ترجع الا الى

القرآن... ولم يكن عند المؤلف اي كتاب آخر حين تأليفها، فهي ملهمة مباشرة من فيض القرآن الكريم فهي تنزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة''.٢٤

وترى ذلك واضحاً في المقام الثالث من مجموعة الشعاعات من كليات رسائل النور حيث يقول الامام بديع الزمان: ''ان الدلائل والحجج والعلامات الدالة على تحقق الوحدانية ووجودها لا تعد ولا تحصى وقد ذكرت في ''سراج النور'' الالوف من تلك البراهين لذا أكتفي في هذا المقام ببيان مجمل لثلاث حجج فقط.

العلامة والحجة الاولى، التي تنتج كلمة ''وحده''.

العلامة والحجة الثانية التي تنتج كلمة ''لا شريك له''.

العلامة والحجة الثالثة التي تشير اليها ''له الملك وله الحمد''

ففي العلامة والحجة الاولى: يشير الى ان في كل شئ وحده والوحدة تدل على الواحد وتشير اليه، ومما لا شك فيه ان الاثر الواحد يصدر من صانع واحد، فالواحد يصدر من الواحد. وحيث ان في كل شئ وحدة، فهي تدل على أن الشئ اثر لواحد احد وصنعته.

ثم يفصل هذا الاجمال بالربط بين العقل والنور فيقول: نعم ان هذا الكون اشبه ما يكون بزهرة مغلفة بالوف من ستائر الوحدة.٢٥ اي ان الحكمة الفاعلة في الكون واحدة والعناية فيه واحدة، والتنظيم الذي فيه واحد.. والرحمة المغيثة للمحتاجين فيه واحدة والمطر النازل بشرى بين يدى رحمته تعالى واحد.. وكذا الشمس التي تنشر الدفء لهذا الكون واحدة، والقمر الذي يبعث الضياء واحد... فهذه الآحاد في العالم حجة باهرة كالشمس الساطعة تدل على الواحد الاحد وتشير اليه.٢٦

وهكذا فان عناصر الكون وانواعه، كل منها مع كونها واحدة الا ان احاطتها بسطح الارض ودخول بعضها في البعض الآخر، واتحاد بعضها مع البعض الآخر بعلاقات قوية بل بالمعاونة، علامة ظاهرة بلا شك على ان مالك الكون ومولاه وصانعه واحد احد'' ٢٧

لقد اوضحت رسائل النور في اجزائها المتعددة هذا المعنى الذي يقوم على ان الوحدانية والتفرد تجعل كل شئ منتسباً ومستنداً الى الذات الالهية الواحدة ويصبح هذا الانتساب والاستناد قوة لا حد لها لذلك الشئ حتى يمكنه ان ينجز من الاعمال الجسيمة، ويولد من النتائج العظيمة ما يفوق قوته الذاتية ألوف المرات معتمداً على سر ذلك الاستناد والانتساب'' ٢٨

فحينما ننظر الى بداية كل شئ ونهايته، ولا سيما في ذوى الحياة - نرى ان بداياتها واصولها وجذورها ، وكذا ثمراتها ونتائجها على نمط وطراز بحيث كان تلك النوى والاصول برامج وفهارس وتعاريف تتضمن جميع اجهزة ذلك الموجود، وكذا يتجمع في نتيجة ذلك الموجود وفي ثمرته، ويترشح فيها معنى ذلك الكائن الحي كله،فيودع فيها تاريخ حياته، فكأن نواة ذلك الكائن الحي كله هي اصله سجل صغير لدساتير ايجاده، اما ثمراته فهي في حكم فهرس لاوامر ايجاده. ٢٩

وهكذا كلما دققنا النظر في اول كل موجود وبدايته رأينا ما يدل على علم عليم، وكلما دققنا النظر في آخره شاهدنا برامج صانع، وكلما دققنا في ظاهر الشئ رأينا حلة بديعة في غاية الاتقان لفاعل مختار مريد، وكلما نظرنا الى باطن الشئ شاهدنا جهازاً في غاية الانتظام لصانع قدير.. ٣٠

نعم، ان في كل مخلوق توجد وحدة، والوحدة تدل على الواحد. وهكذا يستند كل شئ الى قوة عظيمة هائلة تملك مقاليد الكون بأسره... ومن هنا يستمد كل مخلوق في الوجود قوته من تلك القوة الالهية العظيمة المطلقة... من ذلك ''الفرد

الاحد'' جل وعلا. فلولا الفردية لفقد كل شئ هذه القوة الجبارة، ولسقط الى العدم وتلاشت نتائجه. ٣١

وكل هذا يشير في وضوح لا لبس فيه الى ان الوجود كله المنبثق عن الوحدة عابد بطبيعته، منصاع لاداء وظيفته للواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد.

اما العلامة الثانية والحجة البالغة من الدلائل والحجج الدالة على تحقق الوحدانية والتوحيد فتتمثل في وجود الانتظام الاكمل بلا خلل والانسجام الاجمل بلا نقص والميزان العدل الذي لا يظلم قطعاً، في كل شئ في الكون ابتداء من الذرات الى المجرات.

نعم، لا يكون الانتظام البديع والميزان الدقيق الا بالوحدة والتوحيد، لان الايدي المتعددة اذا ما تدخلت في فعل واحد فانها تفسده.٣٢ وفي هذا المقام يخاطب بديع الزمان - الانسان - مفصلا له هذا الاجمال وكأن الانسان هو الكون مصغراً، والكون هو الانسان مكبراً فيقول: ''تعال تأمل في هيبة هذا الانتظام البديع الذي جعل هذا الكون على هيئة قصر عظيم فخم، في كل حجر من احجاره صنعة القصر بكامله.. وجعله مدينة رائعة التنسيق والنظام بحيث تصرف صادراتها غير المحدودة وتأتي وارداتها غير المعدودة واموالها الثمينة وارزاقها المتنوعة بانتظام كامل من وراء ستار الغيب، كل في وقته المناسب، ومن حيث لا يحتسب... وجعله كتاباً معجزا بليغا بحيث ان كل حرف فيه يفيد معاني مائة سطر، وكل سطر فيه يعبر عن معاني مائة صحيفة، وكل صحيفة فيه تبين معاني مائة باب، وكل باب فيه يفصح عن معاني مائة كتاب. ليس هذا فحسب بل ان كلا من ابوابه وصحائفه وسطوره وكلماته وحروفه يشير الواحد منها الى الآخر ويدل عليه'' كما يقول: ''تأمل في كمال عدالة هذا الميزان ضمن هذا الانتظام بحيث يوزن كل شئ بذلك الميزان، فالمخلوقات والحيوانات الدقيقة التي لا ترى الا بعد تكبيرها ألف مرة، وكذا النجوم التي هي اكبر من الارض بألف مرة، يوزن كل منها بذلك الميزان ويكال بمكياله، فتعطي لتلك المخلوقات كل ما يلزمها من حاجيات من غير نقص وقصور حتى تتساوى امام ذلك الميزان، ميزان العدالة، تلك المخلوقات الصغيرة جداً مع تلك المصنوعات الخارقة في الضخامة. علما ان منها ماله تأثيرعظيم الى حد تختل موازنة العالم بفقد موازنته لثانية واحدة من الوقت.٣٣

وهكذا ينتقل الامام بديع الزمان بالانسان عبر المشاهد والعلامات الكونية لتزكية الوجدان الايماني الذي يستمد من رؤية هذه الآيات والعلامات مادعا اليه الدين ونادت به الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وان هذا الابداع الشامل والانسجام المعجز المحيط بكل شئ، حجة قاطعة على الوحدانية وبرهان واضح على التوحيد، اسطع من ضوء الشمس في رابعة النهار.

ثم يقول: ان الموجودات تخلق وتظهر الى الوجود بوجهين:

الاول: الخلق من العدم وهو ما يعبر عنه بـ ''الابداع والاختراع''.

الثاني: انشاؤها من عناصر موجودة، وتركيبها من اشياء حاضرة اي ب '' التركيب والانشاء''

كما يفصل الامام بديع الزمان هذا وذلك فيقول: فاذا نظرنا الى الموجودات من زواية سر الاحدية وتجلي الفردية، نرى ان خلقها وايجادها يكون سهلاً وهيناً الى حد الوجوب والبداهة، بينما ان لم يفوض امر الخلق والايجاد الى الفردية والوحدانية، فستتعقد الامور وتتشابك وتظهر امور غير معقولة وغير منطقية الى حد المحال والامتناع.

ولذا ينادي بديع الزمان الانسان قائلاً: انك ترى الموجودات قاطبة تظهر الى الوجود من دون صعوبة وتكلف، ومن غير عناء، وعلى اتم صورة وكيفية، يثبت لك بداهة اذا تجلى الفردية، كما يتبين ان كل شئ في الوجود انما هو من ابداع الاحد الفرد ذي الجلال والاكرام. ٣٤

ان المتأمل ابعاداً واعماقاً فيما ذكره الامام بديع الزمان في العلامة الثانية والحجة البالغة من الدلائل والحجج الدالة على تحقق الوحدانية والتوحيد يرى انه امام مركز دائرة تقود الانسان الى مراقي الفلاح والسلوك المستقيم كما يتبين له بوضوح حرص الامام بديع الزمان على ان القرآن الكريم ما ترك من دلائل التوحيد شيئاً وما تضمنته آية النداء العام لكل البشر يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون.٣٥

وفي معنى هذا النداء يشير صاحب مؤلف اشارات الاعجاز الى ان هنا استفسار بلسان الحال اكثر التنزيل من ذكره للايقاظ والتوسم والتنبيه. وهذا الخطاب مؤكد بوجوه ثلاثة:

الاول: بما في حرف ''يا'' من الايقاظ

الثاني: وما في حرف ''اي'' من التوسم.

الثالث: وما في حرف ''ها'' من التنبيه.

فالخطاب هنا رمز الى فوائد ثلاث تتمثل في :

- مقابلة مشقة التكليف بلذة الخطاب.

وان ترقى الانسان من حضيض الغيبة الى مقام الحضور انما هو بواسطة العبادة. التي لاواسطة فيها بين العابد والمعبود ليس هذا فحسب كما يقول الامام بديع الزمان النورسي بل اشارة الى ان المخاطب مكلف بجهات ثلاث:

١- باعتبار قلبه بالتسليم والانقياد

٢- وباعتبار عقله بالايمان والتوحيد

٣- وبالنظر الى قالبه بالعمل والعبادة. ٣٦

ومن هنا ارتبطت القضايا المراد تقريرها للانسان بالوسيلة التي تنير له الطريق الى الفطرة والتوحيد كما قال سعد الدين التفتازاني ''اسباب العلم للخلق ثلاثة الحواس السليمة والخبر الصادق والعقل''. ٣٧ فالسمع والبصر والفؤاد والعقل كل مع الخبر الصادق موضع الخطاب القرآني، وهي مناط التكليف في الدنيا والمسئولية في الآخرة، فالبناء المادي والروحي للانسان يتداخل بعضهما في بعض، ولا تكمل هوية الانسان الا اذا تضامنت شخصيته في البناء المادي والروحي، حيث يوجد قبول عقلي واطمئنان قلبي والتقاء مع الارادة، وذلك هو كمال الشخصية وهو كمال الاعتقاد. ٣٨

وفي هذا المقام يقول الشهرستاني: ''ان الله عز وجل اسس دينه على مثال خلقه''.٣٩ وهذا يعني ان التوحيد يلتقي مع الانسان في قواه المتعددة ويتعامل معها جميعاً.

ومن هنا استخدم القرآن الكريم في البيان لهذه القضية قضية التوحيد جميع المصابيح المؤدية الى تثبيتها في القلب والاذعان لها والرضا بها بالوسيلة المثبتة لها سواء بالعقل او بالسمع او بالتذكر...

قال تعالى: والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم. ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون.٤٠ وقال تعالى: لو كان فيهما آلهة الاالله لفسدتا.٤١

كما يدلل القرآن الكريم بالاسلوب الوجداني والعاطفي فيثير من الانسان وجدانه ويحرك عاطفته نحو عقيدة التوحيد قال تعالى: الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون.٤٢

كما يدلل القرآن الكريم على بيان قضية التوحيد بالنظر في ملكوت الله تبارك وتعالى حتى تكون حواس الانسان كلها مستغرقة في آياته وآلائه ليتخذ الانسان من ذلك الدليل الواقع تحت حسه وسمعه وبصره البرهان اليقيني على كمال قدرة الله ووحدانيته وذلك بمثل قوله تعالى وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم أفلا تبصرون٤٣ ثم يأتي التذكير كثمرة لهذا الترابط والتكامل بين ما سمعه الانسان وابصر وما ادركه بعقله ووجداته المتصل بالقلب ومن هنا ربط الحق تبارك وتعالى بين هذه النوافذ الموصلة الى طريق الفطرة والتوحيد قال تعالى : والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون٤٤ وفي هذا المقام يقول الامام ابن القيم '' فالتبصرة التعقل. والتذكرة التذكر، والفكر باب ذلك كله ومدخله. فاذا فكر الانسان تبصر، واذا تبصر تذكر''٤٥ فبعد ان عدد الخالق وسائل الادراك التي منحها للمخلوق رتب على ذلك النتيجة التي هي ''لعلكم تشكرون'' ولذلك استوجب هذا الربط ان يشكر الانسان خالقه لان الشكر يوصل الانسان الى خضوع قلبه والتعبد لله تبارك وتعالى.

ومما هو جدير بالتنبيه اليه، ان الهدف الرئيسي للقرآن الكريم يكمن في ايقاظ شعور الانسان ليدرك ما بينه وبين الخالق وبين الكون من علاقات متعددة، كما يقول العلامة محمد اقبال.٤٦ وبهذا تتضح قيمة المنهج القرآني الذي قامت عليه رسائل النور وانها لم تنح نحو القضايا المجردة الجامدة، بل اشتقت من الواقع الطبيعي والنفسي والعقلي والكوني اساساً لهذا البناء القائم على الفطرة والتوحيد وفي هذا المقام يقول الامام بديع الزمان ''ان الايمان بالوحدانية وبقدرة - الفرد الواحد الاحد - المطلقة هو وحده الكفيل باحلال الطمأنينة والسكون في تلك الرغبات المتأججة لدى الانسان .٤٧

ومن خلال هذه السطور نقف على تكامل الرؤية بين كل من الامام ابن القيم والعلامة محمد اقبال والامام بديع الزمان سعيد النورسي والمتأمل في كتاب الله المقروء القرآن الكريم - باعتباره آخر الكتب السماوية التي انزلها الله سبحانه وتعالى على رسله وانبيائه يقف على وحدة الاديان السماوية في اصل الاعتقاد كما تبين فيما سبق وانها تتمثل في المصابيح الايمانية التالية:

١-توحيد الله سبحانه وتعالى وتفرده بالخلق - ''لاشريك له -''

٢- توحيد الله سبحانه وتعالى في العبادة. ''لا معبود بحق سواه''

٣- نفى مماثلة المخلوقات له في الذات والصفات والافعال.٤٨

ومن هنا تلتقي فطرة الخلق في منهج الخالق مع الفطرة الانسانية والفطرة الكونية بالاستمداد من وحدة الخالق الواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد.

واذا انتقلنا الى العلامة والحجة الثالثة من الدلائل والحجج الدالة على تحقيق الوحدانية والتوحيد كما هي في البيان الذي أقامه الامام بديع الزمان سعيد النورسي والتي تشير اليها - له الملك وله الحمد - وجدنا فيضا من علامات التوحيد التي لا تعد ولا تحصى.

نعم ، ان وجه كل شئ كليا كان ام جزئياً ، ابتداء من الذرات الى السيارات، علامة توحيد واضحة جلية كوضوح جلوة الشمس في المرآة ودلالتها على الشمس نفسها. فمرآة تلك العلامة الموضوعة على كل شئ ايضاً تشير اشارة ساطعة مثلها

الى منور الأزل والأبد، وتشهد على وحدانيته وحيث ان اكثر تلك العلامات غير المحدودة قد وضحت توضيحاً مفصلاً في '' سراج النور'' لذا نكتفي هنا بالاشارة الى ثلاث منها فقط:

-فعلى وجه الكون نشاهد علامة واسعة للتوحيد، مركبة من التعاون والتساند والتشابه والتداخل التي تبينها الانواع فيما بينها، كل تجاه الآخر.

- وعلى وجه الارض نشاهد علامة توحيد واضحة موضوعة على جيش سبحاني مركب من كافة طوائف الحيوانات والنباتات، وذلك بمنح ارزقها المختلفة واسلحتها المتباينة والبستها المتنوعة وتعليماتها المتمايزة ورخصها المتغايرة، تمنح كلا منها دون نسيان احد وبلا خطأ وفي غاية الانتظام وفي الوقت المناسب.

- وعلى وجه الانسان نشاهد علامة وحدانية يبينها وجود العلامات الفارقة في وجه كل انسان بحيث تميزه عن جميع الوجوه الاخرى في الارض كافة.

بل نشاهد على وجه كل مصنوع جزئياً كا ن ام كليا علامة توحيد ونشاهد على رأس كل مخلوق كبيراً كان ام صغيراً ، قليلاً كان ام كثيراً ، ختم الاحدية ولا سيما العلامات الموضوعة على الكائنات الحية فهي علامات ساطعة لامعة. ليس هذا فحسب بل ان كل كائن حي هو بنفسه علامة توحيد، وختم وحدانية وطابع احدية''٤٩ بما فيه من منح وآلاء ظاهرة وباطنة.

وهنا يضع الامام بديع الزمان سعيد النورسي بثاقب فكره وقوة حجته ثمرات التوحيد وانها تتمثل فيما يلي:

- الثمرة الاولى: الجمال الالهي والكمال الرباني انما يظهران بالتوحيد.

- الثمرة الثانية: ان مزايا الكون تتحق بالتوحيد.

- الثمرة الثالثة: ان سجايا الانسان وماهيته تظهر بالتوحيد.٥٠

ومن هنا يتضح اهتمام الامام بديع الزمان النورسي بحقيقة التوحيد الذي دعا اليه القرآن الكريم لتجلية الحقائق الايمانية كما هي في الفطرة الانسانية. ''وان عناصر هذه المملكة مواد منتشرة في جميع ارجائها فمالكها اذن واحد يملك ما في المملكة كلها، كذلك المصنوعات المنتشرة في ارجاء المملكة لانها متشابهة تظهر علامة واحدة وناموساً واحدا فجميعها اذن تدل على ذلك الواحد المهيمن على كل شئ.'' ٥١ كما يقول بديع الزمان في مؤلفه مرشد اهل القرآن الى حقائق الايمان ''ان التوحيد الحقيقي التصديقي غير التوحيد التصورى وان التوحيد الحقيقي الذي نبحث عنه ونتحراه ، ليس هو معرفة قائمة على تصور فكر بل هو تصديق قائم على علم نابع من البراهين وهو ارفع من التصور كما هو في علم المنطق.

فالتوحيد الحقيقي اذا حكم وتصديق واذعان وقبول ليس هذا فحسب بل يجد المرء مالكه بكل شئ . ويبصر طريقاً الى ربه الجليل ولا يحوله شئ عن سكينة قلبه واطمئنانه الى ربه.'' ٥٢

ولذا يسوق الامام بديع الزمان الاستدلال القائم على الشمول بمختلف الطرق التي سلكها الفلاسفة والمتكلمون في موضع واحد من كتاب الله تبارك وتعالى لبيان البراهين التي تناولتها اقلام هؤلاء واولئك في موضع من كتاب الله وذلك في قول الله تعالى: ''يا ايها الناس اعبدو ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون''٥٣

فالعبادة هي التي ترسخ العقائد وتصيرها حالاً وملكة اذ الامور الوجدانية والعقلية ان لم تنمها وتربطها العبادة - التي هي امتثال الاوامر واجتناب النواهي - تكن آثارها وتأثيرتها ضعيفة.

والمتأمل في هاتين الآيتين يقف على ان النداء الالهي بدأ اولاً باثبات الصانع توحيده. ويكمن هذا البيان في خمسة انواع من البراهين تتمثل فيما يلي:

اولها: انه استدل على التوحيد بانفسهم واليه الاشارة بقوله: ''اعبدوا ربكم الذي خلقكم''

وثانيها: بالبيان لاحوال آبائهم واجدادهم واليه الاشارة بقوله: ''والذين من قبلكم''

وثالثها: بالبيان لاحوال اهل الارض عامة واليه الاشارة بقوله: ''الذي جعل لكم الارض فراشا''.

رابعها: بالبيان لاحوال اهل السماء واليه الاشارة بقوله: ''والسماء بناء''

وخامسها: بالبيان للاحوال الطارئة المتعلقة بالسماء والارض واليه الاشارة بقوله ''وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم'' فان السماء كالأب والارض كالام ينزل المطر من صلب السماء الى رحم الارض فيتولد منها انواع النبات المختلفة الاشكال والطعوم كما هي في العلامات السابقة.

ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال: فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون''٥٤

ومن هنا تتضح لنا حقيقة البناء الذي أقام عليه الامام بديع الزمان منهج رسائل النور في التدليل على هذه القضية - قضية التوحيد - كما هي في القرآن الكريم وانها برهان له وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته لايقاظ منبهات الفطرة المؤدية الى تثبيتها في القلب والاذعان لها، والرضا بها، واستخدام كافة الجوارح في طاعة الله تبارك وتعالى.

ان اجزاء رسائل النور قد ألجمت اعتى المعاندين الملحدين وافحمتهم واثبتت - كالشمس وضوحاً - ما كان يظن بعيداً عن العقل من حقائق الفطرة والتوحيد كحقائق المعراج النبوي والحشر الجسماني...٥٥

ان رسائل كليات النور لم تكن مجرد مجلدات من اوراق العقل الباردة او حركة ذاتية تحمل ورائها اهدافاً غامضة، بل كانت في حقيقتها وكما قدمتها الكلمات والشعاعات، والمكتوبات والاعجاز ثورة فكرية لايقاظ منبهات الفطرة في النفس من خلال البيان للوعي الايماني القائم على الفطرة والتوحيد في واجهات فرق المغالاة والشطحات المتعنتة لمخالفة النفس واتباع الهوى، وتعد هذه المصابيح بمثابة النور لكلياتها لانبثاقها عن الوحي الالهي.

وعلى هذا يتضح ان فائدة هذا العلم، اثبات العقائد الايمانية بالادلة العقلية التفصيلية. او دفع شبه المعارضين لها ايضا بواسطة الادلة العقلية التي تدحض تلفيقات الخصم ليس هذا فحسب بل ينتقل بعقيدة الانسان من مرتبة التقليد الى درجات اليقين ، وايضاً يقيم في سجية الانسان الاخلاص في الخلق والسلوك ومراقبة الله في السر والعلن كما بين ذلك عضد الدين الايجي اثناء تناوله للفائدة المرجوة من هذا العلم وانها تتمثل في النقاط التالية:

١- الترقي من حضيض التقليد الى ذورة الايقان قال تعالى: يرفع الله الذين آمنو منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير.٥٦

٢- ارشاد المسترشدين بايضاح المحجة والزام المعاندين باقامة الحجة والرد على المبتدعة والمنحرفين من اصحاب المذاهب الضالة.

٣-حفظ قواعد الدين من ان تزلزلها شبه المبطلين.

٤- ان تبنى عليه العلوم الشرعية فانه اساسها واليه يؤول أخذها واقتباسها .

٥- صحة النية والاعتقاد. اذ بهما قبول الاعمال وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين.'' ٥٧

ولذا فعلم التوحيد من وجهة نظر - الامام بديع الزمان النورسي - يطلعنا على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته... كما يقول عن الامام في المبحث الاول من الكلمة الثالثة والعشرين من مجموعة الكليات من كليات رسائل النور ''نبين من آلاف محاسن الايمان خمسة محاسن فقط في خمس نقاط:

الاول: أن الإنسان يسمو بنور الايمان الى اعلى عليين، لأن الايمان انتساب.

الثانية: ان الايمان بنور الكائنات.

الثالثة: ان الايمان نور وقوة.

الرابعة: ان الايمان يجعل الانسان إنساناً.

الخامسة: أن الايمان يقتضي الدعاء''٥٨

إن الامام بديع الزمان سعيد النورسي في اجابته عن دلائل التوحيد في كتابه ''محاكمات عقلية'' يتناول المصابيح الايمانية للآية الكريمة لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا. ٥٩

وهذا هو برهان التمانع والدليل الوافي والمنار الساطع علي هذا المنهاج الشاهد على وحدانية الصانع... بل تصريح بان صانع هذا الكون الواحد واحد. وصيحة تتلو على الكل '' وفي كل شئ له آية تدل على انه الواحد''.٦٠

وكل هذه البراهين تستمد غذاءها من كتاب الله المقروء كما هي في كتاب الله المنظور الذي يتجلى فيه العرض القرآني لقضايا علم اصول الدين بدليل الحكمة والعناية والاتقان والاعجاز والخلق والامكان والحدوث.

ومن هنا اصبحت جميع العلوم الكونية والعقلية في فكر بديع الزمان وسائل وألسنة تنطق بالوحدانية ونوافذ تطل على الآخرة، وبهذا يصدق نهج مجموعة رسائل كليات النور في براهينها الايمانية ''كلما شاب الزمان فإن القرآن يزداد شباباً ونضارة اكثر'' ٦١

هذا هو الامام بديع الزمان سعيد النورسي في جانب من أفكاره، صحبناه وتأملنا مائدة معارفه ثم حاولنا ان نعرضه في هذه المسألة كما هو واضع من خلال سطور هذا البحث.

ويجب ان يدرك القارئ ان قضية الالوهية في الاسلام لها دخل في الانسان وفي الكون وفي الحياة بعامة. أي لها أثرها في جميع قضايا الدنيا والآخرة التي هي الغاية المتوخاة من علم التوحيد.

وبعد هذا البيان المعرفى الشامل لحقيقة التوحيد في فكر الامام بديع الزمان كما هو في رسائل كليات النور التي تقوم على تجلية الحقائق الايمانية والعقائد الاسلامية التي تزود المؤمن بمفاتيح الوحي الالهي لتطهير الانسان مما قد يُبتلى به من إصابات سلوكية وانحرافات نفسية...

- ان رسائل كليات النور بيان تربوي متكامل كما يقول بديع الزمان لقد علمنا القرآن الكريم

- ان التصديق القلبي بوجود الخالق ج؛ل وعلا بصفاته المقدسة وبأسمائه الحسنى، مستند الى شهادة الكون جميعاً.''

ولذا قامت رسائل النور على البيان القرآني لعرض وتحليل حقيقة التوحيد من خلال الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية.

كما أقامت الاستدلال الايماني بالربط بين اسباب العلم والمعرفة ومخلوفات الخالق المتعددة حتى اصبحت كل هذه المخلوقات المنشورة آيات تدل على الوحدانية والتوحيد.

كما انطلقت رسائل النور من البيان الايماني للمنهج القرآني في تأسيس اليقين عن طريق الربط بين وسائل الادارك والشريعة الفطرية من جانب والشريعة الكونية والطبيعية من جانب آخر، وذلك عن طريق تجلية مفاتيح الفطرة والدعوة الى ايقاظ الوعي الاميانى وربط المخلوق بخالقه عن طريق التكامل بين دائرة التكاليف الايمانية والعملية.

كما قامت رسائل كليات النور على الربط بين دوائر المسئولية المتشلة في الالزام والمسئولية والجزء من خلال النظر في كتاب الله المقروء كماهي في كتاب الله المنظور ، وان الكتاب الاول احكمت آياته عددا والكتاب الثاني ظل مفتوحا ليأخذ منه الانسان الزاد الذي يوصله الى خالقه نفيا طاهراً حتى تتحقق الغاية المتوخاة للتوحيد بالفوز والسعادة في الدنيا والآخرة. كما قال الحكيم بديع الزمان سعيد النورسي " ان التوحيد يتجلى بالحياة في هذه الكثرة.".

نعم ان تجليا من تجليات الوحدة يجعل الكثرة الكاثرة من الموجودات وجوداً واحداً، لان الحياة تجعل الشئ الواحد مالكا لك شئ.. بينما كل الاشياء عند فاقد الحياة عدم." ٦٢

لقد انطلق بديع الزمان في منهجه الايماني من فيض القرآن الى اعماق النفس والوجدان ليس هذا فحسب بل والافاق المرئية والمدركة في ترابط ينير الطريق للعقل ويريح القلب عبر نظرة واحدة في جوانب المعرفة الكونية التي تشرف على الكائنات من خلال قول الله تعالى الله نور السموات والارض٦٣.

وهذا المعنى يتكامل في بناء المنهج مع ما قاله اقبال في قصديته - طلوع اسلام -.

ومصدر فطرة الاسلام حقا وشرعته لكل العالمينا

اخاء يجمع الامم اتحاداً وينتظم الخلائق اجمعينا

وف يالتوحيد للامم اتحاداً ولن تبنوا العُلَى متفرقينا

تجاذبت الكواكب فاستقرت ولولا الجاذبية ما بقينا ٦٤

ان الحقيقة التي اختطها بديع الزمان في بيانه الايماني لرسائل النور تقوم على اكتشاف وتجلية العلاقة المنهجية بين الوحي والكون وهي علاقة تداخل وتكامل منهجي تكشف عن شمول منهجية القرآن الكريم للكون وسننه وقوانين حركته، كما ان فهم السنن الكونية والقوانين الطبيعية ومعرفتها تساعد على فهم واكتشاف قواعد منهجية القرآن الكريم المتسق مع التركيب الالهي للكون وللانسان المستخلف فيه الذي يمثل كونا صغيراً، ولذا يقول الحكيم بديع الزمان في كليات رسائل النور بلسان الحال للانسان الذي هو الكون الصغير والذي من اجله كان القرآن كما قال شاعر باكستان بلسان المقال في ختام قصديته السابقة:

من لي بأوراق الشقيق ازفها لثرى الشهيد وقبره المعطار

دمه يليق بغصن ملتنا التي مدت ظلال الامن للاقطار

فهيا ننشر الزهر ابتهاجاً ونملأ ساحة الدنيا ورودا

وهيا نستمد كؤوس راح تثير بسحر نشوتها الوجودا

نشق ستائر الافلاك وثباً ونسمو فوق هامتها صعودا

ونوسع هذه الدنيا نضالاً لنخلق عالما حراً جديداً ٦٥

كما يسوق الادلة والبراهين التي تضع يد القارئ والناظر على هذا فيقول:

ان موجودات الكون كلها بانواعها المختلفة تتعاون فيما بينها كتروس ودواليب معمل رائع يعمل بنظام دقيق جداً، فتترابط اجزاؤها بعضها مع بعض ترابطا وثيقاً ليس هذا فحسب بل ويسعى كل جزء لتكملة مهمة الآخر.

فمثل هذا التعاون بين المخلوقات وهذا التساند وهذه الاستجابة وهذ الالسعى في دوام المعاونة واسعاف الاخرين، وهذا الترابط والاندماج يشكل وحدة متحدة الاجزاء في الوجود كله تماما كما في اعضاء جسم الانسان التي لا يمكن فك بعضها عن بعض لشدة الترابط والاندماج فيما بنيها.

وعلى هذا فالذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود يلزم ان يكون زمام جميع العناصر بيده. والا فال يمكنه السيطرة على ذلك العنصر الواحد.

وهكذا فان ظاهرة التعاون والتجاوب والتساند الجارية على وجه الكون بين جميع اجزائه هي اسطع شعار وختم للتوحيد. ٦٦ يقف عليه كل مكلف بمجرد النظر والاستقراء لانظمة الكون وقوانين الحياة.. إلا عند فاقد الحياة.

ان موت بديع الزمان لم يكن نهاية مجده وانما ستظل رسائل النور السنة تنطق بالوحدانية ونوافذ تطل على الآخرة لدوام مصدرها القرآني وكما قال : ‘‘ان رسائل النور درس قرآني يوافق افهام العصر’’ ٦٧

رحم الله الإمام بديع الزمان ونفعنا بعلمه حتى تظل آثاره منارة تضئ الطريق بنور التوحيد للسالكين في دروب الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

*ا. د. سامي عفيفي حجازي: ولد في مدينة المنوفية سنة ١٩٤٩ . استاذ بقسم الفلسفة والعقيدة في كلية اصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة. وله مؤلفات عديدة منشورة.

١ سورة الحج الآية ٧٥

٢ سورة الروم الآية ٣٠

٣ مسند الامام احمد بن حنبل ح٢ ص ١٨١ وراج سنن البيهقي ج ٧ ص ١٩٢

٤ بديع الزمان سعيد النورسي مرشد اهل القرآن الى حقائق الايمان ص ٥٦ وراجع دكتور احمد السايح بحث بعنوان الامام سعيد النورسي واثره في ترسيخ الايمان.

٥ المرجع السابق للحكيم بديع الزمان.

٦ المرجع نفسه.

٧ المرجع السابق

٨ سورة الاسراء الآية ٩

٩ بديع الزمان سعيد النورسي مرشد اهل القرآن ص ٦٧. راجع المستل لسامي عفيفي

١٠ بديع الزمان سعيد النورسي مجلد الكلمات ص ٣١٠

١١ المرجع السابق ص ٢١١

١٢ المرجع نفسه ص ٧٨٢

١٣ بديع الزمان مجلد المكتوبات ٢٩٨

١٤ بديع الزمان مرشد اهل القرآن الى حقائق الايمان ص ٣٧

١٥ راجع العلامة ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٦ ط الرابعة ١٩٨١

١٦ راجع لسان العرب مادة وحد - ٤٧٨١ ط دار المعارف والقاموس المحيط ج ١ - ٣٤٤ ط دار الفكر بالكويت.

وعلى ما تقدم يتضح ان المعبود اذا خصص فيكون هو الله تعالى ويكون هو المعبود بحق، واماذا اطلق فيشمل كل معبود بحق او بباطل فاذا جاءت معرفة بالالف واللام فهي تعني الاله المعبود بحق ، راجع تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ١٠ لشيخ الاسلام ابراهيم البيجوري.

١٧ حاشية البيجوري على الجوهرة ص ٣٥ ط الاولى ١٣١٠ هـ.

١٨ المرجع السابق.

١٩ دكتور سامي عفيفي حجازى مدخل لدراسة علم الكلام ص ٣٧ ط الاولى ١٩٨٨ م.

٢٠ المرجع السابق

٢١ الامام بديع الزمان سعيد النورسي رسائل النور مجلد المكتوبات ص ٢٩٨

٢٢ الامام بديع الزمان في مؤلفه محاكمات عقلية ص ١٤٤

٢٣ المرجع السابق

٢٤ بديع الزمان مرشد اهل القرآن الى حقائق الايمان ٦٨

٢٥ بديع الزمان مجلد الشعاعات من كليات رسائل النور ص ٣٥

٢٦ المرجع السابق.

٢٧بديع الزمان حقيقة التوحيد ص ١١٠

٢٨ بديع الزمان سعيد النورسي مجلد المكتوبات ص ٢٩٩

٢٩ المرجع السابق

٣٠ بديع الزمان حقيقة التوحيد ص ١١٢

٣١ الامام بديع الزمان المجموعة الكاملة في رسائل النور مجلد الشعاعات ص ٣٥. راجع المستل لسامي عفيفي

٣٢ المرجع السابق

٣٣ الامام بديع الزمان مجلد اللمعات ص ٣٤٦ وراجع حقيقة التوحيد ص١١٣.

٣٤ المرجع السابق

٣٥ سورة البقرة الآية ٢١،٢٢

٣٦ بديع الزمان مجموعة رسائل النور مجلد اشارات الاعجاز ص ١٥٨

٣٧ سعد الدين التفتازاني العقائد النفسية ص ١١ ط كراتشي باكستان

٣٨ دكتور سامي حجازي الاستدلال القرآني منهجه ومميزاته.

٣٩ الشهرستاني الملل والنحل تحقيق الدكتور بدران ص ٤٥

٤٠ سورة البقرة الآيات ١٦٣ ، ١٦٤

٤١ سورة الانبياء الآية ٢٢

٤٢ سورة الرعد الآية ٢

٤٣ سورة الذاريات الآية ٢١

٤٤ سورة المؤمنون الآية ٧٨

٤٥ الامام ابن القيم مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٢١٤

٤٦ العلامة محمد اقبال تجديد الفكر الديني ص ١٥ بتصرف يسير.

٤٧ بديع الزمان حقيقة التوحيد ص ١٢٧ ترجمة الاستاذ احسان الصالحي.

٤٨ أ. د. محي الدين الصافي بالاشتراك في العقيدة والاخلاق ص ١٢ ط ١٩٢ م.

٤٩ بديع الزمان مجموعة رسائل النور مجلد الشعاعات ص ٣٩.

٥٠ المرجع السابق مجلد الكلمات ص ٣١٨ وراجع حقيقة التوحيد.

٥١ المرجع السابق.

٥٢ بديع الزمان مرشد اهل القرآن الى حقائق الايمان ص ٣٨.

٥٣ سورة البقرة الآية ٢٢

٥٤ راجع عجائب القرآن للرازى بتحقيق عبد القادر احمد عطا ص ٢٦ ط الاولى ١٩٨٢ م حسان بالقاهرة وراجع المجموعة الكاملة لرسائل النور وراجع دكتور عبد العزيز الدردير التفسير الموضوعي ص ٢٦ ط الاولى ١٩٨٢ م.

٥٥ بديع الزمان مرشد اهل القرآن الى حقائق الايمان ص ٧٠

٥٦ سورة المجادلة الآية ١١

٥٧ الامام عضد الدين الايجي كتاب المواقف ص ٨. وراجع التهانوي كشاف اصطلاحات العلوم والفنون ص ٢٣. وراجع الامام الغزالي المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ٩٠.

٥٨ بديع الزمان مجلد الكلمات ص ٣٤٨.

٥٩ سورة الانبياء : ٢٢

٦٠ الاستاذ إحسان قاسم الصالحي في مؤلفه ‘‘بديع الزمان سعيد النورسي’’: ٢١٩

٦١ المرجع السابق

٦٢ بديع الزمان ‘‘مرشد اهل القرآن الى حقائق الايمان’’: ٢٠ وراجع الامام بديع الزمان سعيد النورسي ‘‘كليات رسائل النور’’: ٨٤٤

٦٣ سورة النور: ٣٥

٦٤ الدكتور محمد إقبال ‘‘قصيدة طلوع إسلام’’ ترجمة الاستاذ الصاوي علي شعلان

٦٥ المرجع السابق الدكتور: محمد إقبال

٦٦ حقيقة التوحيد للحكيم بديع الزمان: ٧٥ - ترجمة الاستاذ احسان قاسم الصالحي وراجع الاستاذ محسن عبد الحميد ‘‘النورسي الرائد الفكر الاسلامي الكبير’’: ٥٠

٦٧ المرجع السابق: ٨٩٧